

أنطون شماس *

سبع خواطر وحاشية: اللغات والكتب

ممتلئة ومفقودة ومترجمة

I - لغة الأم، ولغة الرابّة والملح

ترتبط اللغة العبرية في قاموسي الشخصي، دائماً، بالملح. والملح هو ذلك المسحوق الأبيض الذي يهوى الناس فركه في جروح بعضهم بعضاً، فيما لو سنحت الفرصة أو لم تكن سانحة، وخصوصاً في تلك البلاد التي ما زلت، على الرغم من البعاد الطويل، أدعوها موطني الأول والأخير. كنت صبيّاً قروياً في الثانية عشرة، وكان ذلك بعد أسابيع قليلة فقط من تركنا تلك القرية الصغيرة في شمال فلسطين في مطلع الستينيات وهجرتنا للإقامة في حيفا، في حيّ من الأحياء المشتركة، اسماً فقط، بين فقراء اليهود والعرب. فقد حدث ذات عصر أن أرسلتني أمي لشراء بذور عبّاد الشمس، لأنها كانت تتوقع زيارة من بعض صديقاتها اللواتي سبقننا إلى حيفا. بذور عبّاد الشمس - ذلك ما كانت ستقدمه لضيقاتها في القرية، قبل مسك الختام التقليدي المكوّن من القهوة والكعك، إذا توقّر. وأنتم أحرار في تخيل الصديقات، لكون بذور عبّاد الشمس طعام العصافير عند المتحضرين من أهل المدن، كأنهن ببغاوات ثرثرات ستتطاير قشور عبّاد الشمس من أفواههن تطاير الكلمات.

كنت صبيّاً قروياً إذاً، لا تتجاوز معرفته للغة العبرية ما يُصطلح على تسميته "مفردات النجاة"، أي تلك المفردات والعبارات العملية القليلة، اللازمة للإفلات من حرج الجهل المطبق، أو هكذا كنت أعتقد حتى ذلك اليوم، كأن تُصرف مثلاً فعلَ الشراء، "لكنوت"، بصيغة المستقبل للمؤنثة الغائبة. فتخيلوا إذاً ذلك الصبي يأخذ على عاتقه المفعم بالفخر والاعتداد بالنفس مهمة شراء البذور، وتخليوه يحشر جسمه القروي الضئيل داخل دكان ضيق لبيع النُقول والمكسرات، ثم تخيلوه يطلب من البائع الأضيق خلقاً من دكانه (وهو، خلافاً لجميع التوقعات، يهودي من رومانيا كما تبين لاحقاً)، يطلب منه بعبرية فصحي كأقصى ما يستطيع، نصف كيلو من بذور عبّاد الشمس. ثم تخيلوا ذلك البائع ضيق الخلق ينظر إليّ شزراً من علياء عرش مكسراته، ويسألني بعبرية فصحي كأقصى ما يستطيع هو: "عَمّ ميلاخ أو بلي ميلاخ؟"

* كاتب ومترجم وأكاديمي فلسطيني.

أُجمد أنا في مكاني مصعوقاً، وقد فقدت صوتي ولساني: بحق السماء، ما الذي تعنيه هذه الكلمات المبهمة؟ ثم يعود البائع إلى طرح السؤال نفسه، مرة تلو الأخرى، لكن بصبر أخذ في الاضمحلال، حين تدخل الدكان ابنة الجيران، كتجسيد فجائي لضمير المؤنثة الغائبة. وابنة الجيران كانت قروية مثلي، لكنها كانت تنتمي إلى طلائع المهاجرين القرويين الذين سبقونا وأتوا إلى حيفا في أواخر الخمسينيات. وها هي الآن تحشر نفسها في المشهد، بأنف مرفوع، وتتطوع من دون أن يطلب منها ذلك أحد، كعادة هؤلاء القرويين، كي تشرح لي أن البائع يسأل ما إذا كنت أريد البذور مملحة أم لا. منتهى البساطة. وهي ستفأخر فيما بعد، وعلى مسمع كل من أراد أن يسمع، بأنها أنقذت هذا الصبي القروي المسكين، الذي هو أنا، من ورطة مواجهته الأولى مع اللغة العبرية، ثم تتسأل ببراءة مصطنعة، مواصلة فرك الملح في جروحي، كيف غاب عني أن الكلمة العبرية "مِلّاخ" (هكذا لفظتها، بالخاء المفخمة، لا كما يلفظها اليهود الشرقيون: ميلّاح) ليست سوى الكلمة العربية "ملح"؟ وما زاد طيني بلة أن أحداً من سامعيها لم يشك في صحة روايتها أو يتعامل معها، كما يقول التعبير الإنجليزي، ولو مع حبة واحدة من الملح.

في ذلك المساء حلفت يميني الحيفاوية الأولى، فأقسمت أنني سأتقن العبرية بحذافيرها! غير أنني ربما أكون قد بالغت وذهبت أبعد مما يجب. فالأم التي أرسلتني ذلك العصر، بلغة عربية، لشراء بذور عبّاد الشمس، باللغة العبرية، لم تكن تعلم هي الأخرى أنها تسلّمني إلى الرابة، إلى زوجة الأب الأخرى، بكل ما تحمله هذه الكلمة من تداعيات سلبية في جميع الأساطير الشعبية العالمية؛ لم تكن تعلم هي الأخرى أنها تسلّمني إلى رابة تنهب الملكية وتصادر الأملاك، وتشتت وتشرّد وتهجر وتقتل باللغة العبرية. لكننا نعلم أن اللغة، في ذاتها، تخلو من نيات الخير والشرّ، وأن الناس الذين يستعملونها للقتل، على أكثر من مستوى، هم الذين يدنسونها بممارساتهم، بينما تحافظ اللغة على طهارتها. إلا أنني لم أكن أعلم في ذلك العصر أن بذور عبّاد الشمس، على الرغم من كونها محمصة، ستنبت فوق لساني، ولم أكن أعلم أن اللسان الذي استساغ مذاق البذور المملحة، مذاق لغة الرابة، سيطلب المزيد، برغبة لا تعرف الشبع.



منزل قديم في مدينة حيفا

المصدر: موقع "فلسطين في الذاكرة" الإلكتروني:

www.palestineremembered.com

II - وتحول الماء إلى "واتر"

ليلة ٢٢ حزيران / يونيو ١٩٩٥، في آن آربور، ميتشيغان، استيقظ ابني نديم الذي كان على أعتاب الثالثة، كعادته نحو منتصف الليل وصاح بالإنجليزية: "واتر"؛ فوصلتني صيحته الناعسة بواسطة جهاز الإنصات الذي على طاولتي، والذي يرطني بغرفة نومه ويتتبع تنفّسه وكل نامة وحركة يصدرها، بصورة "بانوبتيكية"

(panoptic) كما يصفها فوكو في حديثه عن السجون والعقاب، وتبرّرها الأمهات والآباء أمثالي، من دون أن يرفّ لنا جفن، بأن التلصص والمراقبة والسيطرة هي أشياء ضرورية لسلامة الطفل. صعقتني الصيحة الكهربائية، ليس لأنها كانت أعلى من العادة فحسب، وليس لأنها، لفظاً فقط، جاءت مستوفية جميع قواعد النطق المتبعة في "الغرب الأوسط" الأميركي ("واتر" بدلاً من "وتر")، بل لأن نديم كان حتى تلك الليلة ينادي عادة "مي"، كما ندعو الماء بالعربية الفلسطينية، وليس "واتر".

ونديم، الذي ولد في آن آربور في سنة ١٩٩٢، تربّى في البداية بلغتي والديه المهاجرين، العبرية والعربية، انطلاقاً من الاعتقاد المتفائل أنه سينجح ذات يوم في ترويض هذين التّينين قاذفي اللهب والكلام واحدهما نحو الآخر، ويصبح في نهاية المطاف مواطناً أميركياً ثلاثي اللغة والانتماءات الثقافية. حين بلغ الثانية والنصف، أدخلناه إلى الحضانة حيث تعلّم أولى الكلمات الإنجليزية التي لم يكن مصدرها التلفزيون. وفي الحضانة اكتشف نديم، بالسليقة، أن اللغتين الغربيتين اللتين تعلّمهما حتى هذه اللحظة في البيت، العربية والعبرية، هما لغتان عديمتا الفائدة تماماً في التواصل مع أقرانه الصغار، وأنه، فوق ذلك، إذا مُنح الخيار في التفضيل بين لهجة والديه باللغة الإنجليزية وبين لهجة المعلمة الأميركية فإنه سيختار، بالسليقة أيضاً، لهجة المعلمة من دون أي تردد. ويمكن الافتراض أن الاكتشاف الأول حدث بالتدريج، فبعد ثلاثة أشهر تقريباً توقّف نديم حتى عن الالتفات نحونا حين كنا نخاطبه بالعربية أو العبرية، كأن هاتين اللغتين مُحيتا تماماً من ذاكرة حاسوبه الشخصي. فتملّكنا اليأس والإحباط، لكننا وجدنا بعض العزاء في أنه اختار لهجة المعلمة للحديث حصرياً بالإنجليزية، وفي أنه احتفظ في قاموس مفرداته ببعض الكلمات العربية والعبرية التي كان يقحمها أحياناً في جُمَله الإنجليزية الأولية. "حليب"، مثلاً، واصلت الظهور في كلامه، لأسباب واضحة، وكذلك "مي"، للدلالة على أمزجة السوائل داخل عقله الغضّ.

في تلك الليلة المصيرية في حزيران / يونيو ١٩٩٥، حين بدلاً من استعمال "مي" كعادته، صاح "واتر"، لم يُترجم نديم كلمة "مي" إلى "واتر" فحسب، بل إنه حوّلها، حرفياً، إلى "واتر"، كما فعل فلسطيني آخر أكثر شهرة منه كثيراً وأعلى كعباً، يوم حوّل الماء، حرفياً، إلى نبذ، في بداية طريقه العجائبية. وهكذا فإن محاولتنا لتنشئة جيل أول من ثلاثي اللغة وثنائيي المعترضتين (فلسطيني - إسرائيلي - أميركي)، أصابتها ضربة قاصمة، ومُنيت "البانوبتيكية" اللغوية التي أردنا تطبيقها بالفشل الذريع.

لكن تلك ليست حكاية فقداننا أنا للغة العربية.

III - خزانة الكتب، دفيئة في الجدار

في الخمسينيات، كما ذكرت، كنت صبيّاً في قرية منسية في شمال فلسطين، هي موضوع روايتي "أرابيسك" (المكتوبة باللغة العبرية). وفي سنة ١٩٥٧ أتى إلى القرية لـ "خِدمتنا" كاهن بدا للقرويين غريب الأطوار بعض الشيء، لم يشفع له اسمه المعمداني (يوحنا)، وقد حكيت قصته في الرواية. والقرويون، وأنا واحد منهم، يرون عنصر الغرابة في كل ما لا يتوافق مع الأشياء المعهودة لديهم، ولا يتوافق مع سبل تفكيرهم في شؤون العالم. فغادرنا أبونا حنّاً بعد عامين، يائساً من فظاظتنا وضيق عقلنا، وغادرنا دماثته وطيبة قلبه التي لا تعرف الحدود، وغادرنا مكتبته التي كانت

تحتوي مجلدات نادرة من الكتب والمجلات الأدبية الصادرة في القرن التاسع عشر، أو غادرنا، إذا توخينا الدقة، ما كان قد تبقى من محتويات تلك المكتبة. فقد وضع أخي الأكبر نصب عينيه، بمساعدة ابن عمه لنا، لا يقل عنه حيلة ومراوغة ودهاء، اشتهاء المكتبة ونهبها بالتدريج، بحجة الاستعارة التي كانت في أغلب الأحيان تحدث في اتجاه واحد، مخالفين بذلك واحدة على الأقل من الوصايا العشر الواردة في التوراة، وبعض وصايا الكنيسة المقدسة التي لم أعد أذكرها. فبدأت مجلدات أبونا حثاً تتقاطر إلى خزانة الكتب في بيتنا، مجلداً عقب مجلد، موهرة بختمه الدائري الذي أخفق في حراستها من النهب والسلب. وخزانة الكتب في بيتنا كانت دفيئة داخل جدار الكلين القبلي، فوق الكنبة. والكلين، للفائدة والتاريخ، هو أسلوب في بناء البيوت العربية، حيث يكون الجدار مبنياً من جدارين من الحجر متوازيين يبعد أحدهما عن الآخر ما يقارب المتر، وبينهما ردم من التراب والدبش، وحجارة التقصيب، أي تلك الشظايا التي تنتج من نحت حجارة البناء للجدارين، وتسويتها بشكل مربعات ومستطيلات. وأسلوب البناء هذا يوفر لأهل البيت ملجأ من قىظ الصيف ومن زمهرير الشتاء على السواء. وكانت خزانة الكتب عبارة عن صندوق خشبي ضخم، ثخين الألواح، مطمور داخل جدار الكلين، بحيث يلامس ظهره الجدار الخارجي من الداخل، وتظهر مقدمته بمستوى الجدار الداخلي، وهي عبارة عن باب مدهون بالأخضر الزيتي. وإلى داخل ذلك الصندوق القابع في حماية حائط الكلين توافدت المجلدات في الخفاء من مكتبة أبونا حثاً، فيما يمكن تسميته مجازاً عملية "الببليودغرة الكبرى" (والدغرة، لغة، تعني أخذ الشيء من الدكان اختلاساً، من دون دفع ثمنه، أي ما يدعوه إخواننا الغربيون "كلبتومانيا" (kleptomania)؛ والـ "ببليو"، كما لا يخفى على القارئ اللبيب، هي بادئة تعني الكتاب). وكان بعض تلك المجلدات يمكث في الخزانة الدفيئة إلى أجل معلوم ثم يعاد إلى صاحبه وفق منطق عشوائي، وبعضها الآخر تطول إقامته ويتنقل ذهاباً وإياباً بين خزانتنا وخزانة ابن العمه، للتشويش على اقتفاء الأثر. والذي كان يمكث منها، كان يأنس بصحبة الكتب التي جاءت بها والدتي في مطلع الأربعينيات من لبنان، موطنها الأصلي، وقد سيطرت عليها الفوضى التامة، إذ لم يكن قد مسّها بعد ذلك السأم اللطيف الذي للترتيب، كما يقول والتر بنيامين. ومن المجلدات النادرة التي مكثت في الخزانة، موهة بما أتت به أُمي من لبنان، بضعة مجلدات سنوية نادرة من مجلة "الجنان" البيروتية من سبعينيات القرن التاسع عشر، وهي المجلة التي أنشأها المعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٧٠، وأوكل تحريرها إلى ابنه سليم، وهو في الثانية والعشرين من عمره. وفيها نشر سليم، على مدى أربعة عشر عاماً، حتى وفاته الفاجعة، ما يمكن اعتباره الروايات العربية الأولى. وكان هناك مجلدات المجلة النسائية "منيرفا" التي أنشأتها ماري يني في بيروت في سنة ١٩١٦، والتي قال عنها جبران خليل جبران (كما اكتشفت فيما بعد) إنها "أحسن مجلة نسائية في الشرق الأدنى". وكذلك أعداد من مجلة "الهلل" التي أنشأها جرجي زيدان في القاهرة في سنة ١٨٩٢، وبعض الروايات المعربة، "بتصرف" وبغير تصرف، وكتب تعلم قواعد اللغة الفرنسية، وسلسلتا كتب "المشوق" و"اللغة العربية" لتعلم اللغة العربية، وهما في اعتقادي إلى اليوم من أروع الكتب لتعلم اللغة التي يجب أن ندعوها، كما يذهب الياس خوري على خطى خليل بن أحمد، "لغة العين". واحتوت السلسلتان كلتاهما على مختارات من أعمال أدباء عرب وأجانب، هي أول ما قرأته من الآداب الأجنبية. وكنت أقضي الساعات أمام تلك الخزانة، مستلقياً على الكنبة الخشبية تحتها، أو "الكنباي" كما كنّا نسميها، ألتهم الرسوم الإيضاحية في طبعة قديمة من القاموس الفرنسي "لاروس" (Larousse)، ثم أبدأ بالاكتشاف المتروك للنصوص التي حوتها سلسلتا

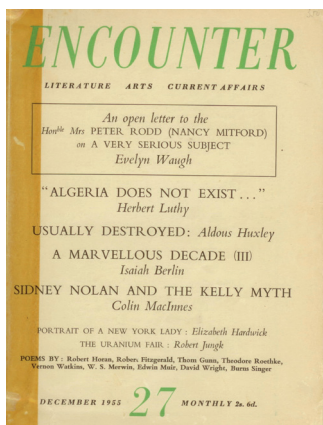
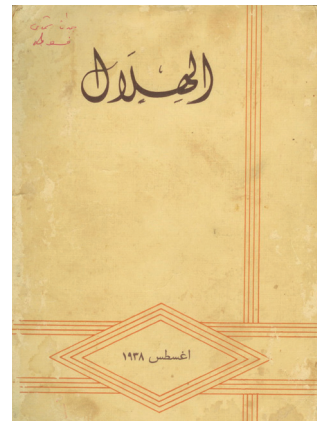
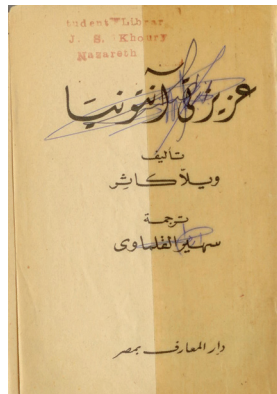
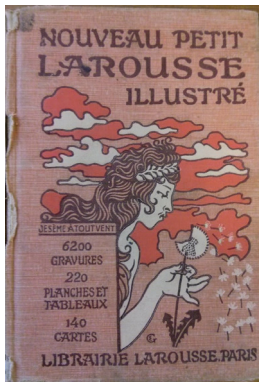
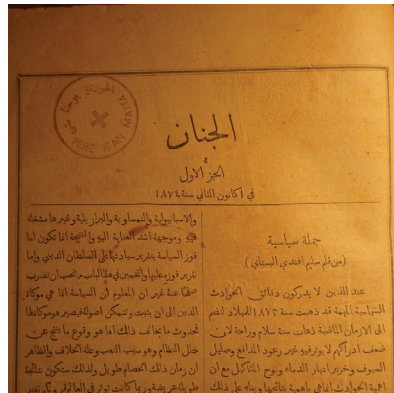
كتب "المشوق" و"اللغة العربية"، ماراً بأسماء لم أستطع تهجئتها ولفظها كما يجب: هوميروس وسرفانتس وفكتور هوغو (الذي ما زلت إلى اليوم لا أتقن لفظه الصحيح). لكنني كنت أكثر انجذاباً إلى نصوص الكتاب العرب المحدثين الذين كتبوا في الثلاثينيات والأربعينيات، فحفظت بعضها عن ظهر قلب، من دون أن أفقه معانيها، وما زلت إلى اليوم أستطيع تلاوة مقاطع من "المفكرة الريفية"، رائعة أمين نخلة. لكن جوهرة التاج بالنسبة إلى الصبي الذي كنته كانت رواية ويللاً كاثراً الأميركية، "عزيزتي أنتونيا"، بترجمة عربية خلاصة لسهير القلماوي، صدرت في القاهرة في الأربعينيات، وهي الرواية الأولى التي قرأتها في حياتي، وكنت يومها في العاشرة، ولعلها روايتي المفضلة على الإطلاق. فحين أريد أن أعود متسللاً بعد هذه السنين كلها إلى حيّز الطفولة السحري ذاك، داخلاً ذلك الباب الزيتي الذي لخزانة الكتب الدفينة في الجدار، لم يكن عليّ إلا أن أفتح "عزيزتي أنتونيا" بترجمتها العربية التي ما زالت ترافقني حتى اليوم، وأقرأ مطلع "الكتاب الأول":

كان أول ما سمعت بـأنتونيا أثناء رحلة طويلة، بدت لي لا نهاية لها، عبر السهل الأوسط من أميركا الشمالية. كنت قد بلغت من العمر عشرًا وكنت قد فقدت أمي وأبي في عام واحد. فأرسلني أهلي من فرجينيا إلى جدّي وجدتي في نبراسكا. وكنت مسافراً برعاية صبي من أهل الجبل اسمه جيك ماربول، وهو أحد المساعدين من عمّال ضيعة والدي القديمة تحت "البلوردج"، كان يذهب معي غرباً ليعمل عند جدّي. ولم تكن معرفة جيك بالعالم أو تجاربه فيه بأوسع مني ولا بأكثر. إنه لم يكن قد ركب قطاراً من القطر الحديدية في حياته قبل هذا الصباح الذي ارتحلنا فيه معاً لنجرّب حظنا في عالم جديد.

مضى أكثر من نصف قرن على تلك القراءة الأولى، ولا أدري إذا كان هناك في كل ما قرأت بعدها نصّ يستطيع أن يهزّني ويمسّ شغاف قلبي كما فعل نص ويللاً كاثراً بترجمته العربية. فقد قرأت الأصل الإنجليزي حين تيسّر لي الحصول عليه، بعد ذلك بعقدين أو أكثر، ودُهلت من أن الأصل بدا عادياً وباهتاً إلى أبعد الحدود مقارنة بروعة النص العربي، فكان الترجمة التهمت الأصل وحلّت مكانه في مخيلتي، إذ إنني ما زلت إلى اليوم، حين أمرّ باسم ويللاً كاثراً في مقالة ما، أتعامل معه للوهلة الأولى كاسم لروائية عربية كتبت رواية تجري أحداثها في ولاية نبراسكا الأميركية. ولا أدري أيضاً إذا كان هناك كتاب آخر أستطيع أن أرى اسم العلم "أنطون"، والأعلام لا تترجم، مطموراً بين دفتيه، مؤثّراً، كذلك الخزانة المطمورة في جدار الكلّين. ولا أستطيع أن أعْلل وأفسر كيف أن هذا النص، مترجماً، يمنح اسمي ويمنحني دلالة ومعنى. وهو، إلى ذلك، النصّ الذي لا يترجمني بل يحولني، حرفياً، إلى صبي يتيم في العاشرة اسمه جيم بيردِن، يعيش مع جدّيه في نبراسكا، وهي بلاد لم أزرها في حياتي، لكنها بالنسبة إليّ جزء من مناظر طفولتي في شمال فلسطين. فالروايات تستطيع أن تفعل ذلك أحياناً، تستطيع تحويل الماء إلى خمر أمام ناظريك بكل بساطة.

في كتاب آخر في تلك الخزانة، قرأت لأول مرة حكاية الفلاح الفقير الذي أراد زيادة مدخوله فأخذ يخلط حليب أبقاره بالماء ويبيعه، وكيف أن قطعانه فيما بعد، ووفقاً لمنطق الجريمة والعقاب، أغرقها سيّل فجائي في الوادي. ما منحه الماء عاد الماء فأخذه.

لكنني كنت جاهلاً فلم أتّعظ، وستأتي الأعوام بالبرهان.



من كتب المكتبة الغريقة
المصدر: مكتبة أنطون شماس الخاصة

IV- الرغبة الداخلية في امتلاك مكتبة

في صيف سنة ١٩٨٧ تركت القدس إلى آن آربور، بعد عشرين عاماً من إقامتي فيها. وكنت في هذه الأعوام أنتقل بين لغتين، وسبعة عناوين مختلفة. وحين وصلت إلى العنوان السابع كان قد أنهكني ثقل الكتب المتراكمة التي كنت "أشحطها" ورأيت من دار إلى دار، فطالت إقامتي في ذلك العنوان لأن وزن مكتبتي المتزايد أحمَد لدي كل رغبة بالتنقل. وكنت قد قرأت في أحد الكتب التي كانت لدينا في تلك الخزانة الدفينة، خبر أبي الفرج الأصفهاني الذي كان خلال الأعوام التي أكتب فيها على وضع "كتاب الأغاني" يتنقل من بلد إلى بلد محملاً مخطوطاته التي لا تُحصى فوق أربعين من الجِمال. ولأنني لم أكن أخطط لأصبح أبا الفرج الثاني، ولأن الجِمال لم تكن متوفرة بهذه الكثرة في قدس تلك الأيام، قررت البقاء في مكاني، على أكثر من صعيد.

كنت قد انتقلت إلى القدس من حيفا، في نهاية الستينيات، للالتحاق بالجامعة العبرية. وسرعان ما اكتشفت أن بناية المكتبة الجامعية هي الملتجأ الذي أريد أن أتردد إليه، وليس قاعات التدريس. وهكذا كان، وقضيت سنواتي الجامعية، إذا صحَّ وصفها كذلك، معتكفاً في المكتبة. وخلال تلك الأعوام نفسها أيضاً بدأت بتكوين مكتبتي الشخصية المتواضعة. يتحدث بنيامين عن "الرغبة الداخلية في امتلاك مكتبة"، من دون أن يفسر ما الذي تعنيه تماماً كلمة "امتلاك"، لأنه، علاوة على اقتناء الكتب التي كنت أحتاج إليها لدراستي الجامعية، كنت أنهب بالتدريج من مكتبتنا في حيفا، على مرأى من أخي الكبير، بطل عملية "الببليودغرة الكبرى"، لأننا كنّا قد تركنا القرية، كما أشرت، في مطلع الستينيات، تاركين وراءنا في تلك الخزانة الدفينة المقفلة عدداً لا بأس به من الكتب، ولأسباب ما زلت إلى اليوم أجهلها. أخي الآخر عاد إلى القرية فيما بعد، حين انتقلت أنا إلى القدس للدراسة، وتزوج وسكن في البيت، فأصبح، قانونياً، الوارث الشرعي لتلك الخزانة بمحتوياتها. وكونه حديث الزواج، ولأنه لم يكن بالفعل يهوى من الكتب غير تلك المزينة بالصور، بحسب شهادته، فإنه لم يلحظ الاختفاء المتدرج لورثته، أو أنه لم يمنح الاختفاء اهتماماً كبيراً. وكنت آتي لزيارته وزوجته من حين إلى حين، وأتركهما ومعني كيس مملوء بالكتب أدعي أنني أحتاج إليها من أجل ورقة جامعية كنت عاكفاً على كتابتها، وأني سأعيدها جميعاً في زيارتي القادمة، فيبيتسم أخي بمكر العارفين. وهكذا، كتاباً في إثر كتاب، وصل ما تبقى من الكتب التي كانت ذات يوم في حيازة أبونا حنّاً، ومعظم الكتب التي أتت بها أُمي من بيروت البعيدة حين تزوجت أبي في سنة ١٩٤٠، إلى رفوف مكتبتي في بيت المقدس.

وكان هناك أساليب أخرى، أكثر استقامة، لاقتناء الكتب.

صديق مقدسي من أصدقائي، ولندعُه "نسيم" للتمويه، قال لي ذات يوم أنه ضاق ذرعاً بما تحويه مكتبته من كتب، وإن رفوفه لم تعد تتسع لوفرة الكتب التي لديه، شأن أواني الخليقة التي تحطمت إلى شظايا حين لم تتسع لنعمة الخالق، كما تقول "الكابالاه" في التصوف اليهودي، ثم عرض عليّ أن آتي لزيارته وأختار ما أشاء من الكتب الإنجليزية في مكتبته. وصديقي نسيم يهودي عراقي أتى إلى إسرائيل على الرغم منه في مطلع الخمسينيات من بغداد، حيث كان يعمل بائعاً في مكتبة للكتب الإنجليزية. كان الإغراء لا يقاوم، ولا سيما أن الصفقة بالمجان، أو هكذا أقنعت نفسي. فأمضيت يومين كاملين في متاهات رفوفه، واخترت كنوزاً بحق وحقيق، علاوة على مجرد أعباء كان ينوي التخلص منها بأي ثمن. فإلى جانب ديوان بالطبعة الأولى للشاعر و. هـ. أودن،

وكتب نادرة لا يمكن الحصول عليها، كان عليّ أن آخذ مئات الأعداد من المجلة الأدبية اللندنية "إنكاونتر" من الخمسينيات ومطلع الستينيات. ويمكنكم تخيل المساحة التي كان يحتاج إليها ذلك "الفيل الأبيض"، كما يقول التعبير الإنجليزي.

وبعد أن أخذت نصيبي من الراحة، قررت أن أبدأ بتصفّح أعداد "إنكاونتر"، كي أتخلّص بالتدريج من الأعداد التي لا تحوي شيئاً يعنيني. وتلك كانت غلطتي، إذ لا أذكر أنني تخلّصت من أي من الأعداد. ففيها قرأت مراجعة أودن لثلاثية "ملك الخواتم" لطولكين، والتي يقول فيها أنه لا يقرأ عادة أي رواية يتجاوز عدد صفحاتها ٢٦٠ صفحة، غير أنه استثنى رائعة طولكين من هذه القاعدة. وفيها قرأت، في أعداد سنة ١٩٥٥، مقالة مغمورة للأديب البريطاني المشهور ألدوس هكسلي، وعنوانها "مدمّر كالعادة". ومع أن المقالة في جُلّها تتحدث عن الانفجار السكاني الوشيك في العالم، إلّا إن هكسلي يفتتحها بالحديث عن زيارة قام بها للقدس، وعن دليل سيّاح فلسطيني التقى به هناك، وكيف أن هذا الدليل اجتذب اهتمامه بسبب "مساهمته في توسيع إمكانات التحدث باللغة الإنجليزية المحكية، وفي توسيع الحدود المعهودة لفنّ وعلم التاريخ"، وذلك عن طريق إضافة التعبير "كالعادة" إلى كل جملة يقولها، لسبب أو من دون سبب، كأن يقول: "في القرن السابع عشر لسيدنا يسوع المسيح، قام الأتراك كالعادة بأخذ الرصاص من السقف لصنع الذخيرة... وهذه البيوت المهدمة التي ترونها هناك دُمّرت كالعادة خلال الحرب مع اليهود في سنة ١٩٤٨".

وفي أحد أعداد سنة ١٩٦١، قرأت مقالة هي تحفة في الاستعلاء والخطورة البريطانية لسيريل كونولي:

سحرتني دائماً واجتذبتني دراسة الأقاليم، وبوجه خاص العلاقة بينها وبين الفن. فالفن هو بديل للشمس، لأن نور الشمس الساطع باستمرار يستبعد الفن... فالمرء قد يستصعب العثور على لوحة فنية إلى الجنوب من روما أو مدريد، وعدد اللوحات المعلقة على الجدران يقلّ بالتدريج كلما اقتربنا من حرارة خط الاستواء... ولا حظت في الأقاليم الاستوائية أن الشّعور الأوروبي يصبح ذا معنى فقط قبل أن يهطل المطر، وأن الرطوبة والنمل الأبيض يجعلان التمتع بطبعة أولى، أو بالكتب المجلدة بالجلد أمراً شبه مستحيل. إن مكيف الهواء ربما يساهم في زيادة الإنتاج الفني في الأقاليم الحارة، كما أن التدفئة المركزية دفعت بحدود الإبداع شمالاً... الأدب والرسم والموسيقى والعمارة والتماثيل التي أبدعت بين خطّي العرض ٤٠ و ٦٠ درجة [شمالاً] في الألفي عام الأخيرة، في شروط مناخية، هي ما يبرر الوجود بالنسبة إليّ، بينما أنا أيضاً أعيش بين خطّي العرض ٤٠ و ٦٠ درجة، وأتمتع بإحساس مماثل بالفصول^١.

قرأت ذلك وأنا أقاسي من حرارة خط العرض النافي للإبداع، والذي تقع عليه القدس، أي بحدود الدرجة ٣٢ شمالاً، مدركاً أن أملي الوحيد يكمن في الحصول على مكيف للهواء. إلّا إن ذلك كان مستحيلًا لأن نسيم، كما تبين لي فيما بعد، لم يذكر كلمة واحدة بشأن كون الصفقة مجانية، كما كنت أتمنى في الخفاء، وأنه قصد بيعي جميع الكتب والمجلات التي اشتيتها، عدّاً ونقداً. وهكذا، وجدت نفسي في حلقة سحرية مفرغة، هي من صنع يديّ: السبيل الوحيد أمامي للدخول في حدود

إمبراطورية الإبداع التي رسم حدودها سيريل كونوللي، بين خطّي العرض ٤٠ و ٦٠ درجة، كان إمّا أن أنضم إليه في لندن الكآبة والضباب، وإمّا أن أقتني مكيفاً للهواء في القدس، إلّا إني كنت قد أنفقت كل ما أملك في شراء كتب نسيم والمجلات التي نشر كونوللي في إحداها خواطره بشأن الأقاليم والإبداع.

كنت مُعدماً، إذًا، و"مدمرًا كالعادة"، غير أن الغرق لم تكن ساعته قد أتت بعد.

V - المكتبة الغريقة



مشهد عام لعين كارم

المصدر: موقع "فلسطين في الذاكرة" الإلكتروني:
www.palestineremembered.com

عين كارم كانت قرية فلسطينية جبلية صغيرة إلى الغرب من مدينة القدس، هُجر سكانها في النكبة وتشتتوا، إلّا القلائل، لكنها لم "تدمر كالعادة" إذ بقيت بيوتها الحجرية ذات سقوف القرميد قائمة، إلى يومنا هذا، بين كروم الزيتون، خلافاً لقاطنيها الأصليين الذين تفرقوا في الشتات الفلسطيني، لأن كل شي، كما كانت جدتي تقول، أحسن من بني آدم. وعين كارم، وفقاً للمعتقدات المسيحية، هي القرية التي ولد فيها يوحنا المعمدان، وهو يحيى القرآني، ابن زكريا وأليصابات، نسيبة العذراء مريم. وإلى البيت الذي ولد فيه

يوحنا، كما جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا، جاءت مريم الحبلى بلا دنس بابن الإنسان لزيارة نسيبتها التي كانت في شهرها السادس، وأقامت لديها ثلاثة أشهر. وفوق ذلك الموقع، وفقاً لمنطق الإيمان، بُنيت كنيسة "الزيارة"، وفي القرية كنيسة أخرى تحمل اسم يوحنا، أشهر أبناء عين كارم قاطبة، فهو الذي كان يقول عن نفسه أنه الصوت الصارخ في البرية مبشراً بالمسيح، ويُترجم الناس بالماء. وإليه جاء ابن مريم ليترجمه.

وتستطيعون أن تتخيلوا كم أن شوارع عين كارم وأزقتها الضيقة حول هاتين الكنيستين تعج بالسيّاح المسيحيين على مدار العام، إلّا إن القرية لا تجتذب السياح فحسب، بل أيضاً الفنانين والموسرين وسماسرة البيوت الإسرائيليين خاصة. وقد اشترى أصدقاء لي أعزاء بيتاً في عين كارم في أوائل الثمانينيات، وعرضوا عليّ، حين أزمعت على الرحيل إلى آن آربور في صيف سنة ١٩٨٧، أن أضع أثاثي وصناديق الكتب الكرتونية في الطبقة الأرضية من البيت، والتي كان لها مدخل منفصل هو شباك منخفض يطلّ على الطريق. وهكذا كان.

وتلك الطبقة الأرضية المنخفضة عن مستوى الشارع، لم تكن معدّة للسكن، فتركّت على حالها منذ

بناء البيت كما يبدو، بجدرانها العارية المتآكلة وأرضيتها الترابية، إلا إنها وفّرت لي الحيز الملائم للفترة المطلوبة، ذلك بأن إقامتي الأولى في آن آربور التي امتدت سبعة وعشرين عاماً، لم يكن مقدراً لها أن تكون أكثر من تسعة أشهر. وحين ذهبت لزيارة كتبي أول مرة في تلك الطبقة الأرضية المعتمدة بعد ذلك بعامين، لتخليص بعض الكتب التي افتقدتها في برّية آن آربور، ولتفقد الأيتام الآخرين وما آلوا إليه في رطوبة الطبقة الأرضية، وجدْتُ، بعد فتح بعض الصناديق الكرتونية، أن الكتب، بفعل الرطوبة، انتفخت وبدت كأنها خبز البقلاوة. ثم أعدت الكزة في الأعوام التي تلت، وقمت بشحن كتب عبرية وإنجليزية، والقليل من الكتب العربية، منقذاً إياها من مصير البقلاوة المحتوم. غير أن أعزّ الكتب إلى قلبي، كتبي العربية الثمينة التي لم أرد أن أعرضها لأخطار الشحن والبريد، بقيت في عين كارم لا لسبب سوى الغباء المطبق. فكتبي العربية تلك، ومنها ما نُهب وسُلب، ومنها ما نجا، خلال ما يزيد على ١٠٠ عام، من أخطار السفر والحروب وقطع الحدود وقطاع الطرق بين لبنان وفلسطين، بقيت كلها في عين كارم، في ذلك البيت العربي القديم، لاعتقادي أنها في أمان من الحريق والغريق والشحشة على الطريق، كما كانت جدتي تقول.

وفي إحدى زيارتي لعين كارم في أواسط التسعينيات، في صيف قانظ لا يُحتمل، وبعد أن فتحت بعض الصناديق الكرتونية فانتشرت الكتب نحوي من داخلها كالجاء الصغيرة المنفوخة، قررت إخراج جميع الكتب العربية من صناديقها ونقلها، بموافقة الأصدقاء، إلى حجرة صغيرة مجاورة للطبقة الأرضية، كانت تؤجّر فيما مضى للطلاب، وبقي فيها بعض رفوف الكتب على الجدار. وضعت الكتب على الرفوف، للتهوئة، آملاً بأن تكون قد نجت من آفات الرطوبة.

وفي أواخر سنة ١٩٩٥، وهي السنة التي في حزيرانها تحوّلت المياه في آن آربور إلى "واتر"، اضطر الأصدقاء في عين كارم، كما أخبروني فيما بعد، إلى استدعاء المواسرجي، أي السنكري، لتصليح خط المياه الموصل إلى حمام الطبقة الثانية، وذهبوا للإقامة في بيت الجيران. فقرر ذلك السنكري، وفقاً لمنطق لا يعلمه إلا يوحنا المعمدان، أن يبحث عن الماسورة المعطوبة في حائط الكلّين الموجود خلف رفوف كتبي، بواسطة الإزميل والمطرقة. ولأن المواسير قديمة قدم البيت، فإن ضربة إزميل طائشة تسببت بحرق الماسورة الدفينة، فاندفعت المياه منها كاندفاعها حول سفينة نوح. وإلى أن استطاع الرجل المسكين العثور على الحنفية الكبرى في الخارج، تلك التي تقطع الماء عن الحارة، كان الطوفان قد غمر كتبي وحولها إلى كومة من العجين الأسود.



في الذاكرة العربية، تموت الكتب أحياناً، لا حرقاً بالنار فقط، كما حدث في الأندلس، بل غرقاً بالماء أيضاً. هكذا حدث في بغداد حين غزاها هولاكو في سنة ١٢٥٨، سنة الطوفان الحقيقي في بلاد ما بين النهرين، فبعد أن دمر المغول مكاتب بغداد وألقوا بمخطوطاتها في دجلة تحولت مياه النهر إلى حبر، كما تقول الحكاية، وبقيت مياهه بلون الليل الدامس طوال ثلاثة أيام. وبين تلك المخطوطات كانت ترجمات لا تُحصى، بالعربية والسريانية، لفلسفة الإغريق وعلومهم على أنواعها، فكان أن تُرجمت بدورها وتحولت إلى ماء شَعْشَعَه الحبر.

وفي التقاليد الشعبية هناك اعتقاد أنك لو أغرقت مخطوطة بالماء فذاب حبرها، فما عليك إلا شرب الماء كي تنتقل حكمة المخطوطة إلى ذهنك وتجري في عروقك. ولدى بعض القبائل الإسلامية في

غرب إفريقيا تقليد لحفظ القرآن قوامه تغطيس القرآن بالماء ثم شربه، إذ تتحول الدالّات والإشارات من وضعية الجُماد التي للكتابة إلى وضعية السوائل، أي إلى أبجدية مائية تفتح معابر القلب السريّة أمام الجرعة السحرية. وفي بعض المناطق الريفية في المشرق يعتقد الناس أن شرب المياه التي ذاب فيها حبر الرُّقية تُحصّن الشارب ضدّ اللامّة، أي العين المصيبة بالسوء، كما كان بعض المجتمعات اليهودية في شمال إفريقيا يعلّم الأطفال الأبجدية بواسطة كتابتها بالعسل على اللوح، ثم دعوة الأطفال إلى التهامها لَحْسا، وهذا تقليد كان شائعاً في بعض أنحاء المشرق، إذ كان يُطلب من التلاميذ الصغار شرب مياه ورقة كُتبت عليها حروف الهجاء.



بعد ذلك الطوفان بثلاثة
أشهر أفلح الأصدقاء، كما
قالوا لي، في إيجاد الشجاعة،
والكلمات الملائمة، لإخباري
بالكارثة.

الفكرة الأولى التي خطرت
في بالي عقب سماع الخبر:
ها قد فقدت لغتي العربية.
فالمياه في آن أربور تحولت
إلى "واتر"، وكتبي العربية
تعمّدت بمياه عين كارم
وتحولت إلى عجين أسود.



أحد المنازل في عين كارم

المصدر: موقع "فلسطين في الذاكرة" الإلكتروني:

www.palestineremembered.com



بعد ذلك بأربعة أعوام
وجدت الشجاعة الكافية كي أذهب، ومن دون أي حماسة، لزيارة عين كارم من أجل تفقّد الناجين
من الكتب العبرية والإنجليزية. وكنت أعتقد أن بعض الساعات معهم ستكفيني كي أقرر من سيُشحن
إلى أميركا، ومن سيبقى سجين الطبقة الأرضية إلى أن يُبتّ في أمره، لكنني أنهيت الاختيار والرزم
والشحن بعد أربعة أيام. وكان هناك أيضاً في الصناديق أوراق وكتابات وترجمات ورسائل ووثائق
وقصاصات جرائد، بثلاث لغات. واعتقدت في البداية أنني إذا لم أكن بحاجة إلى هذه الصناديق منذ
رحيلي إلى آن أربور قبل ذلك باثني عشر عاماً، فإني لن أحتاج إليها على الإطلاق. لكن ما إن فتحت
الصندوق الأول وقرأت رسالة من محتوياته، حتى أدركت في الحال أنني لن أستطيع التخلي عن
ذلك الجزء الشاب من نفسي، ولن أستطيع أن أقرر أن لا علاقة له بالكهل الذي أصبح. ففي نهاية
المطاف، هويّاتنا المكتسبة حديثاً ما هي إلا كومة من الأوراق القديمة.

في نهاية اليوم الرابع في عمق الفُلك، وقد خارت قواي تماماً من الحر والرطوبة، وقفت في الوسط،

محاطاً بكتبي، تلك التي ستُشحن إلى "بلاد الحرية"، كما يليق بـ "أحجار الزاوية"، وتلك التي "ردّها البناؤون"، ونظرت إلى أقدام العابرين أمام الشبّك المؤدي إلى الشارع، وهي بمستوى نظري. بعض الشبان الصغار مروا بالشبّك المفتوح على غير عادة، من دون أن يعيروهم أي اهتمام، وواصلوا حديثهم بأصوات عالية، ثم غيّرُوا رأيهم وعادوا حبّاً للاستطلاع. الشاب الأقرب إلى الشبّك ظلّ عينيه بكفّيه كي يستطيع التحقق ممّا يجري داخل الظلمة، وحين تمكّن من رؤيتي، سألني باللغة العبرية: "قُل لي، ما الذي تبيعونه هنا؟"

"نبيع الغبار"، أجبتّه بالإنجليزية. فبُغت وتراجع ممتعضاً، وابتعد مع رفاهه في الزقاق. وكنت أنا قد عنيت الكلمة بمعنى "التراب"، كما تُستعمل في الإنجليزية في عبارة "من التراب وإلى التراب تعود".

VI - الكانيبالية (cannibalism) واجتياز الحدود

إذا أُجبرت على أن أعرّف نفسي، فأرجح الظن أنني سأعترف، على الرغم من إرادتي، بأنني مترجم تتناوبني، بين لاجئ وشريد، اللغات الثلاث التي اتّوهم أنني أعرفها، بهذا القدر أو ذاك: العربية والعبرية والإنجليزية. وسأعترف بأنني ما زلت أحاول، منذ أن وطئت قدماي هذه الأرض الأميركية في أواخر الثمانينيات، أن أحافظ، مترجماً، على علاقتي الهشة بهذه اللغات الثلاث، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وبقدر ما لا أحب الأشغال الشاقة التي تقتضيها ممارسة الترجمة، فإن الترجمة تمنحني كما يبدو وهمّ العزاء والانتماء، عزاء اجتياز الحدود، والتوسط الثقافي، والسمسرة والتهريب، لكنها جميعاً أمور وهمية في الأحوال كافة.

وهي كلها أمور وهمية لأنني لست أكيداً، بعد إعادة النظر، من الوجود الفعلي للمدلول الذي يشير إليه التعبير "اجتياز الحدود". فنحن نفترض بدايةً وجود الحدود بين الثقافات واللغات، حدود واضحة الترسيم تشير بما لا يقبل الشك إلى انتهاء عالم محدد من التاريخ والعادات والأفكار والتقاليد والمعاني، وابتداء عالم آخر متباين بامتياز. ثم نفترض بعد ذلك أن "اجتياز" تلك الحدود، ذهباً وإياباً، لا يحدث في الواقع فحسب، بل يمكن تتبّع أثره وتسجيل تفاصيله ورسم خريطته والتحدث عنه أخذاً وردّاً، أي أنه بكلمات أخرى يمكن لذلك الـ "اجتياز" أن يُترجم، بالمعنى الحرفي للترجمة في اللغة الإنجليزية على الأقل: أن تعبر، أن تنقل، أن تحرّك شيئاً ما من موضعه وتجتاز به من مكان إلى آخر. فذلك هو ما نقوم به، في نهاية المطاف، إذا أردنا أن نمارس ما يصفه والتر بنيامين بـ "مهمة المترجم" - نقل "معنى" نصّ ما من لغة إلى أخرى، كي نمثّل ذلك المعنى ما يسميه بنيامين "الحياة الأخرى". وهذا يعني، بكلمات أخرى، أن النصّ يكون في عداد الأموات من دون فعل النقل ذاك، فعل اجتياز الحدود من لغة إلى أخرى. وفي هذا السياق يمكن أن نستذكر ما كانت تعنيه الترجمة (Translatus) في السياق الكنسي في العصور الوسطى في أوروبا: نقل رفات القديسين أو ذخائرهم من مدفن إلى آخر، وعليه كانت قصص القديسين التي روت أخبار نقل الرفات والذخائر تسمّى "الترجمات" (Translations).

إلاّ إنني لست أكيداً من الوجود الفعلي لذلك الموقع الذي يتم فيه اجتياز الحدود، ففي ظني أن الحدود بين اللغات والثقافات قد لا تكون موجودة فعلاً، فما بالك بفعل اجتيازها، حقيقة ومجازاً.

والحدود غير موجودة لأننا لا يمكن أن نراها ونحددها ونقرأها من داخل ما يمكن تسميته "مناطق الغسق" التي تميز تملك لسانين أو أكثر (والغسق هو استحالة التمييز والتفريق بين النهار والليل)؛ مناطق الغسق حيث الأطراف التي نفترضها واضحة للغة معينة تتأكل وتلتبس، وتلتهم وتُهضم، ثم تتمازج تماماً وتختفي داخل منطقة التقاطع حيث تتطابق أطراف اللغتين. فالترجمون الذين يملكون لغتين أو أكثر هم كما يبدو أولئك الذين يلاحظون هذه الظاهرة أكثر من غيرهم، أما الكتاب الذين يكتبون بلغتين أو أكثر فهم في اعتقادي أقل ملاحظة لهذه الظاهرة، وهذا ليس لأن مرجفتهم (أي مرسمة الزلازل) أقل حساسية، وإنما لأن الأمر بالنسبة إليهم يكاد يكون طبيعة ثانية، كأنما هنالك في داخلهم آلية معينة تجعلهم يعتبرون الظاهرة من بديهيات اللاوعي، وبالتالي ليس هناك ما يستدعي الاحتفاء بها تطبيقاً وتزمية.

فهل يمكن إذاً لهؤلاء الكتاب أن يؤدوا دوراً ما في الترجمة الثقافية؟

أظن أنهم لا يقومون بهذا العمل بمحض اختيارهم وكامل وعيهم حين يمارسون الكتابة، وإنما قرأوهم هم الذين يبحثون في كتاباتهم عن سيمة الترجمة الثقافية، تلك السيمة ذات الطبيعة الكانيبالية. وأنا أستعمل "الكانيبالية" في هذا السياق وفقاً للمفهوم الذي طرحه الأخوان الشعاعان هارولدو وأوغوستو دي كامبوس، في البرازيل، في مطلع الثمانينيات خاصة، حين تحدثا عن الترجمة كفعل انتهاكي وكانيبالي. وقد ذهبوا إلى أن "الكانيبالية"، خلافاً لمفهومها الوحشي السائد في الغرب، أي اصطياد العدو وتقطيع أعضائه والتهامه، يجب أن تُفهم كفعل غايته الأسمى إبداء الإكبار والاحترام للخصم، كفعل رمزي دافعه الحب لاستعادة ما أخذه العدو، ولتشرب فضائل جسده عن طريق نقل الدم. وهكذا يُنظر إلى الترجمة كما يُنظر إلى فعل من التفويض ومنح القوة، فعل إيجابي غايته الإقادة والاعتداء.

وأنا ما زلت أمارس الكانيبالية بهذا المعنى على مدى أربعة عقود ونصف عقد، بين المدّ والجزر، فأتعامل، بدرجات متفاوتة من الارتياح والإخفاق والنجاح، مع ومن داخل وعبر ثلاث لغات مختلفة. إحدى هذه اللغات، الإنجليزية، يمكن وصفها اليوم بأنها لغة "كبرى"، بينما العربية والعبرية تنتميان إلى ما يمكن تسميته باللغات الـ "صغرى"، فسبحان مغير الأحوال. ومنذ أن جئت إلى الولايات المتحدة، وأنا أحاول ترجمة نفسي، بجميع المعاني التي قد تعنيها هذه العبارة، إلى اللغة الإنجليزية، لا طمعاً بالانتماء إلى معسكر "الكبار"، وإنما حباً بالاستطلاع، تلك الخطيئة المميّزة. من أي لغة أترجم نفسي، أو من أي لغات؟ لم أعد أدري، لكنني أكيد أن فعل الترجمة هذا أبعد ما يكون عن الصفاء، وهو لا يأتي إلا مصحوباً بقدر كبير من التشوش، كمكالمة هاتفية من جوال معطوب، رديء الإرسال والاستقبال.

VII - من الهاتف الداعي: هوية المتكلم

في صيف سنة ٢٠٠٠، كنت في طريقي من آن آربور، ميتشيغان، لزيارة والدتي في حيفا. ولأن الطائرة من أمستردام إلى مطار اللد كانت قد أقلت مع ضوء الصباح الهارب، وبكل وقاحة من دوني، لأسباب لا تثير سوى السأم، وهي على أي حال أسباب لا علاقة لها على الإطلاق بأدائي الذي لا تشوبه شائبة كمسافر طيار - ألفتيني رهين مطار أمستردام إحدى عشرة ساعة، حتى موعد إقلاع الرحلة المقبلة. وتلك، وفقاً لأكثر المعايير تساهلاً، تجربة بائسة لا يُحسد عليها أحد (غير

أنها بلا شك أهون كثيراً، مثلاً، من مأساة "الهولندي الطائر"، ذلك المسافر الأبدي الذي لا يحظى أبداً بموطئ قدم). وبعد أن استطعت، بشق النفس، أن أفهم من السيدة التي خلف شبّاك المقطوعين أمثالي، أن إمكان وضعي على رحلة بديلة لشركة طيران أخرى ليس وارداً في الحساب، قررت إجراء مكالمتين هاتفيتين: واحدة باللغة العبرية لزوجتي في آن آربور، في أقصى الغرب، والتي لا يطمئن لها مضجع حين أسافر، كي أخبرها عن الرحلة المؤجلة؛ وأخرى، باللغة العربية، لأمي المدمنة على القلق في حيفا، في أقصى الشرق، لأخبرها أنني سأهبط في مطار اللد في الواحدة بعد منتصف الليل، لا في الواحدة ظهر ذلك اليوم. وبعد أن أفلحت في فك طلاسم "تذكرة المهاتفة" الهولندية، التي كانت صرعة ذلك الزمان، إذ لم يكن "الجوال"، بعد، قد صرّعنا، أجريت المكالمتين، ثم شرعت في البحث عن فندق المطار، والذي كان قد باح لي بسرّه صديق أميركي، لمثل هذه الطوارئ.

وبعد حين، رحت أحاول الإغفاء في الفندق، بين جدران الغرفة الهولندية الأربعة الجدران الخالية من النوافذ، فأقض مضجعي إدراك مفاجئ: لإجراء المكالمتين، وحتى من دون أن أُنح الأمرأي تفكير، كنت قد بحثت عن تلفون عمومي منعزل، بعيد عن طريق المسافرين، ليس لأنني أردت الانفراد، كما كان يمكنني أن أدعي بيني وبين نفسي، بل لسبب آخر لا علاقة له بالخصوصيات. بكل بساطة، كنت أخشى على اللغتين الخافتتين اللتين يلاحقهما لديّ عار السريّة والخفاء، أخشى أن تُسمعا جهاراً، وأن تطرقا مسامع العابرين، أو أن تجتذبا اهتمام الآخرين المشوب بالتهديد، كأنني عدت ثلاثة عشر عاماً إلى الورا، يوم كنت أذرع الشوارع العدائية في مدينة القدس، حيث عشت قرابة عشرين عاماً من الأعوام البائسة قبل تغريبتني الأميركية. فمن ناحية، خشيت أن تجتذب العبرية انتباه الفلسطينيين الافتراضيين الذين ما زالت تلك اللغة بالنسبة إليهم، على مدى قرن ونيف، لغة الطرد والتشريد والقتل والتحقيقات المميّة، لغة القوة والعنف والسلب والمصادرة ونهب الملكية، لغة الاحتلال الدموي، لغة الخطاب الصهيوني الذي ينفي وجود الفلسطينيين وينفي وجود نكبتهم. ومن ناحية أخرى، خشيت أن تجتذب العربية انتباه الإسرائيليين الافتراضيين الذين ما زالت تلك اللغة الفلسطينية بالنسبة إليهم لغة اللاوعي التي لأشباح الماضي سجين الخزانة، لغة "كاليبان"^٢ المقموعة، لغة الطبيعة المكتومة، لغة الضحية غير المعترف بها، لغة ما تسمّيه الأغلبية العظمى من الإسرائيليين الـ "إرهاب"، اللغة المخنوقة لأولئك الذين ليس في قدرتهم سوى إعلان ملكية لهجة معينة، إذ وحدها الدول التي تمتلك جيشاً وسلاح طيران وأسطولاً بحرياً وجهاز مخابرات تستطيع بالتالي أن تمتلك لغة ما، بينما الشعب الذي لا حول له ولا دولة عليه الاكتفاء باللهجة.

كان ذلك شبّاحاً تعقّبني ثلاثة عشر عاماً، منذ أن غادرت القدس، من دون أن أنتبه إلى وجوده ورائي. كان ذلك التخوف من أن اللغة، في ذاتها، هي تهديد يجب تجنّبه، وسرّ هشّ ينبغي لنا الحفاظ عليه، في أن معاً. وتذكرت أنني حين كنت أسكن في تلك المدينة، فإن قراءة جريدة عربية في مقهى في ما يسمّى "القدس الغربية" كانت تثير نظرات الشرف في أحسن الأحوال، وفي أسوأ الأحوال - وهو الأغلب - تستدعي التفقيش ومواجهة عنف البوليس الإسرائيلي. وهذا ما يحدث حين يفسّر الأمر المبتذل اليومي البسيط، كقراءة الجريدة علانية، على أنه تهديد ضمني. وتذكرت أن من محاسن العيش في آن آربور، ميتشيغان، متعة الجلوس في مقهى يخلو من الأشباح، وتصفّح جريدة عربية



عين الماء في عين كارم

المصدر: موقع "فلسطين في الذاكرة" الإلكتروني:

www.palestineremembered.com

من دون استدعاء نظرات
العداء (كان ذلك طبعاً قبل
الحادي عشر من أيلول /
سبتمبر، أما الآن فقد تغيرت
الأحوال وتأسرلت). أدركت
إذاً أنني حين ابتعدت عن
ذلك الأمان المتخيل في آن
أربور، ودخلت في متاهات
مطار أمستردام، استيقظت
في داخلي جميع المخاوف
والتهديدات التي تميز الحياة
في الوطن، ممسكة بتلابيبي.
وما الأدب، باستعارة من
الكاتب الأميركي والتر أبش،
سوى الكلام الذي يحول
التهديد إلى شيء محسوس يمكن رؤيته مرأى العين.

حاشية

بعد ذلك بأعوام كان نديم يستيقظ في الليل عطشان، من دون أن يدري أن "عطشان" صفة
ممنوعة من الصرف، ولا يطلب في أغلب الأحيان مساعدتي، بل يتوجه بنفسه إلى الحنفية ويملاً
كأسه الفارغة بما كان يسميه ذات يوم الـ "مِي"، ويروي ظمأه، ثم يعود متمائلاً إلى سريره، كي
ينهي أحلامه باللغة الإنجليزية. ويخطر لي أحياناً أنه لو كان الأصدقاء في عين كارم قد أخبروني
بأمر الكارثة وقت حدوثها، لكن رجوتهم أن يعصروا بعض الكتب العربية الغريقة ويرسلوا إلي
بمياها في قنينة مختومة. فالحجّاج المسيحيون إلى عين كارم يملأون القناني بمياه عينها
المقدسة، مؤمنين بأنها المياه نفسها التي منحت يوحنا المعمدان فكرة المعمودية، من دون أن
يستفسروا عن ضياع الخير العربي لتلك العين. أما كان إذاً يحقّ لكتبي العربية الغريقة أن تحظى
بالمعاملة نفسها؟ كنت سأضيف بين الحين والآخر بعض القطرات من تلك القنينة المقدسة إلى
كأس نديم، راجياً حسن العواقب.

وهأنذا، بعد هذه الأعوام العجائبية كلها، أدرك أنني فقدت لغتي العربية، وفقدت كذلك لغتي
العبرية، وأن اللغة الإنجليزية ستبقى دائماً بالنسبة إليّ، باستعارة من الشاعر الأميركي هارت
كراين، "شاطناً واحداً أبعد من التمني". وهأنذا، بعد هذه السنين كلها، أدرك أنني سأبقى دائماً
لاجئاً في لغاتي الثلاث، رهين المحبسين: البلبل والتشتيت، في غياهب برجي البابلي الشخصي
والمصغر. ■

المصادر

- ١ سَأقراً فِما بعد، وأُصاب بالصدمة نفسها، شِئناً شَبِهاً بهذا الكلام، وإن من وجهة نظر مختلفة، لدى العَلامَة ابن خلدون في حديثه المسهب عن الأقاليم السبعة في "المقدمة"، وهو كتاب آخر من مكتبة نسيم، وقد تناولت هذا الأمر في موضع آخر. فابن خلدون، ستّة قرون قبل كونولّي، يتحدث عن "المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم"، وهذا يقوده إلى أقوال لا تَقَلّ عنصرية عن نظيره البريطاني، كأن يقول في تفسير ما للأقاليم الحارّة من تأثير: "قد رأينا من خُلُق السودان على العموم الخُفّة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين في الرقص على كل توقيع، موصوفين بالحُمق في كل قطرٍ" (الكتاب الأول، الباب الأول، المقدمة الرابعة)؛ ومثل ذلك كثير.
- ٢ نسبة إلى شخصية كاليبان، الإنسان "البدائي" في "العاصفة" لشكسبير، وهو الذي احتل بروسبيرو جزيرة واتخذهُ عبداً، واصفاً إياه بأنه ساكن الجزيرة الوحيد الذي "لم يتشرّف بأن يكون إنساناً سوياً". والاسم تصحيف لكلمة "كانيبال"، أي أكل لحوم البشر.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل - ٥)

التقارب بين حماس وإيران

بين الضرورة والخيار

رائد أشنّير

٨ دولارات

٧٤ صفحة